بُنَاة دَوْلَةِ الإسْلام

- ٢٠ -

خَطيبُ رَسُوْلِ اللّهِ صَلّى اللهُ عليْهِ وَسَلَم

ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ

رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ

بسم الله الرحمن الرحيم

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ـ قَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نِعْمَ الرَّجُلُ ثَابِتُ بنُ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ**».

ـ وَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا ثَابِتُ! أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيداً، وَتُقْتَلَ شَهِيداً، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ**».

بسم الله الرحمن الرحيم

ثَابِتُ بنُ قَيْسِ بن شَمَّاسٍ الأَنْصَارِيُّ الخَزْرَجِيُّ، أَبُو مُحَمَّدٍ، خَطِيبُ الأَنْصَارِ، وَيُقَالُ لَهُ أَيْضاً خَطِيبُ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَأُمُّهُ كَبْشَةُ بِنْتُ وَاقِدِ بنِ الأَطْنَابَةِ الخَزْرَجِيَّةُ، فَهُوَ أَخُو عَبْدِاللَّهِ بنِ رَوَاحَةَ لأُمِّهِ.

أَسْلَمَ مَعَ أَوَائِلِ الأَنْصَارِ، وَخَطَبَ يَوْمَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المَدِينَةَ فَقَالَ: نَمْنَعُكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَنْفُسَنَا وَأَوْلَادَنَا، فَمَا لَنَا؟.

قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الجَنَّةُ».

قَالُوا: رَضِينَا.

آخَى رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَيْنَهُ وَبَيْنَ عَمَّارِ بنِ يَاسِرٍ.

كَانَ جَهِيرَ الصَّوْتِ خَطِيبَاً بَلِيغَاً، وَكَانَ أَسْوَدَ قَصِيراً. وَيُعَدُّ مِنْ نُجبَاءِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لَمْ يَشْهَدْ بَدْرَاً إِذْ لَمْ يَخْرُجْ إِلَى بَدْرٍ صَحَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ لأَنَّهُمْ لَمْ يَظُنُّوا أَنَّ الخُرُوجَ لِلْقِتَالِ وَإِنَّما لِلْعِيرِ، وَلاَ تَحْتَاجُ العِيرُ إِلَى خُرُوجِ المُسْلِمينَ جَمِيعِهِمْ إِذْ لاَ يَزِيدُ عَدَدُ أَفْرَادِهَا عَلَى الأَرْبَعِينَ رَجُلاً.

وَلِهَذَا قَالَ سَعْدُ بنُ مُعَاذٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَبْلَ مَعْرَكَةِ بَدْرٍ مُخَاطِبَاً رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَلاَ نَبْنِي لَكَ عَرِيشَاً تَكُونُ فِيهِ، وَتَقْعُدُ عِنْدَكَ رَكَائِبُكَ ثُمَّ نَلْقى عَدُوَّنَا، فَإِنْ أَعَزَّنَا اللَّهُ وَأَظْهَرَنَا عَلَى عَدُوِّنَا كَانَ ذَلِكَ مَا أَحْبَبْنَا، وَإِنْ كَانَتِ الأُخْرَى، جَلَسْتَ عَلَى رَكَائِبِكَ فَلَحِقْتَ بِمَنْ وَرَاءَنَا فَقَدْ تَخَلَّفَ عَنْكَ أَقْوَامٌ، يَا نَبِيَّ اللَّهِ، مَا نَحْنُ بِأَشَدَّ حُبَّاً لَكَ مِنْهُمْ، وَلَوْ ظَنُّوا أَنَّكَ تَلْقَى حَرْباً مَا تَخَلَّفُوا عَنْكَ، يَمْنَعُكَ اللَّهُ بِهِمْ، يُنَاصِحُونَكَ وَيُجَاهِدُونَ مَعَكَ.

وَلَمَّا وَصَلَ الخَبَرُ بِمَا حَدَثَ مِنْ لِقَاءٍ مَعَ قُرَيْشٍ تَأَثَّرَ المُسْلِمُونَ الَّذِينَ لَمْ يَخْرُجُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَشَدَّ التَّأَثُّرِ، وَنَدِمُوا عَلَى مَا وَقَعَ مِنْهُمْ - وَلَكِنْ لَمْ يَكُونُوا عَلَى مَعْرِفَةٍ بِمَا سَيَحْدُثُ - وَمِنْهُمْ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ

وَأُسَيْدُ بنُ الحُضَيْرِ وَغَيْرُهُمْ، وَقَالَ ثابِتُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إِنَّهُ لَمْ يَتْرُكْ مَوْقَعَةً أُخرَى مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ ـ إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَشَهِدَ ثَابِتُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، المَشَاهِدَ كُلَّهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أُحُداً، وَبَيْعَةَ الرِّضْوَانِ، وَخَيْبَرَ، وَتَبوكَ، وَفَتْحَ مَكَّةَ و. . . .

تَزَوَّجَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مِنْ حَبِيبَةَ بِنْتِ سَهْلِ بنِ ثَعْلَبَةَ، وَكَانَ فِي خُلُقِهِ شِدَّةٌ فَضَرَبَهَا، فَذَهَبَتْ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ يَهِمُّ بِالخُرُوجِ فَرَأَى إِنْسَاناً، فَقَالَ: مَنْ هَذا؟.

قَالَتْ: أَنَا حَبِيبَةُ بِنْتُ سَهْلٍ.

قَالَ: مَا شَأْنُكِ؟.

قَالَتْ: لاَ أَنا وَلاَ ثَابِتُ.

فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَتَاهُ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خُذْ مِنْهَا، وَخَلِّ سَبِيلَهَا».

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، عِنْدِي واللَّهِ كُلُّ شَيْءٍ أَعْطَانِيهِ. فَأَخَذَهُ مِنْهَا، وَقَعَدَتْ فِي أَهْلِهَا.

كَمَا تَزَوَّجَ جَمِيلَةَ بِنْتَ عَبْدِاللَّهِ بنِ أُبَيٍّ، وَأُمُّهَا خَوْلَةُ بِنْتُ المُنْـذِرِ بنِ حَـرَامٍ، وَكَـانَتْ جَمِيلَةُ قَـدْ أَسْلَمَتْ مَـعَ أَخِيهَـا عَبْدِاللَّهِ بنِ أُبَيٍّ بَيْنَمَا بَقِيَ أَبُوهُمَا عَلَى رَأْسِ النِّفَاقِ.

وَكَانَتْ جَمِيلَةُ قَدْ تَزَوَّجَتْ مِنْ قَبْلُ حَنْظَلَةَ بنَ أَبِي عَامِرٍ الرَّاهِبِ، فَاسْتَشْهَدَ عَنْهَا يَوْمَ أُحُدٍ، وَهُـوَ غَسِيلُ المَـلَائِكَةِ، وَوَلَدَتْ لَهُ بَعْدَ اسْتِشْهَادِهِ عَبْدَاللَّهِ بنَ حَنْظَلَةَ. وَبَعْـدَ وِلَادَتِهَا خَلَفَ عَلَيْهَا ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ فَوَلَدَتْ لَهُ مُحَمَّداً وَبِهِ يُكَنَّى، وَقَدِ اسْتَشْهَدَ وَلَدَاهَـا عَبْدُاللَّهِ بنُ حَنْـظَلَةَ، وَمُحَمَّدُ بنُ ثَـابِتٍ يَوْمَ الحَرَّةِ.

وَيَبْـدُو أَنَّ جَمِيلَةَ اخْتَلَعَتْ أَيْضَـاً مِنْ ثَـابِتٍ، إِذْ قَـالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَفَعْتُ طَرَفَ الخِبَاءِ فَإِذَا ثَابِتٌ قَادِمٌ مَعَ أَصْحَابِهِ فَرَأَيْتُهُ دَمِيمَاً، أَقْصَرَ القَوْمِ، وَأَشَدَّهُمْ سَوَاداً، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَعِيشَ مَعَهُ.

فَدَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثَـابِتَاً، وَقَـالَ لَهَا: أَرْضِي ثَابِتَاً.

فَقَـالَتْ: أُعْـطِيهِ حَـدِيقَتِي، وَهِيَ أَفْضَـلُ مَـا عِنْـدِي. وَيَتْرُكُنِي.

فَقَالَ ثَابِتُ: قَدْ رَضِيتُ. وَفَارَقَهَا.

وَفِي غَزْوَةِ الأَحْزَابِ نَقَضَتْ بَنُو قُرَيْظَةَ العَهْدَ، فَمَا أَنْ رَحَلَ الأَحْزَابُ عَنِ المَدِينَةِ حَتَّى دَعَا رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُسْلِمِينَ لِلْخُرُوجِ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، وَكَانَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ فِي مُقَدِّمَةِ المُنْطَلِقِينَ، وَكَانَ لَهُ دَوْرٌ لَا يُنْكَرُ فِي التَّنْكِيلِ بِهِمْ... ثُمَّ اسْتَسْلَمَ بَنُو قُرَيْظَةَ، وَأَصْبَحُوا فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَحْكُمُ بِهِمْ كَيْفَ يَشَاءُ. وَكَانَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَطْمَعُ فِي كَرَمِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَرُدُّ لَهُ طَلَبَاً.

تَفَرَّسَ ثَابِتُ فِي وَجْهِ أَحَدِ الأَسْرَى، وَهُوَ الزَّبِيرُ بنُ بَاطَا القُرَظِيُّ، وَعَرَفَ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ هِيَ المَرَّةُ الأُولَى الَّتِي التَقَيَا فِيهَا بَيْنَ الرِّمَاحِ والسُّيُوفِ، لَقَدْ سَبَقَ أَنْ وَقَعَ ثَابِتُ أَسِيراً فِي يَدِ الزَّبِيرُ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَعَلَى وَجْهِ التَّحْدِيدِ فِي يَوْمِ «بُعَاثٍ»، وَكَانَ الزَّبِيرُ عَلَى غَيْرِ عَادَةِ اليَهُودِ كَرِيمَاً مَعَهُ، فَلَمْ يَطْلُبْ فِدْيَةً أَوْ مَالاً، وَلَمْ يُنَكِّلْ بِهِ، أَوْ يَجْلُدْ ظَهْرَهُ، كَمَا كَانَ يَحْدُثُ مَعَ الأَسْرَى فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكُلُّ الَّذِي فَعَلَهُ مَعَهُ أَنْ أَخَذَهُ فَجَزَّ نَاصِيَتَهُ، ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ...

عِنْدَهَا قَالَ ثَابِتُ لِلزَّبِيرِ - وَهُوَ شَيْخٌ كَبِيرٌ - يَا أَبَا عَبْدِالرَّحْمَنِ هَلْ تَعْرِفُنِي؟ .

قَالَ اليَهُودِيُّ: وَهَلْ يَجْهَلُ مِثْلِي مِثْلَكَ؟؟ . . .

قَالَ ثَابِتُ: إِنِّي أَرَدْتُ أَنْ أَجْزِيَكَ بِيَدٍ لَكَ عِنْدِي.

قَالَ: إِنَّ الكَرِيمَ يَجْزِي الكَرِيمَ . .

ثُمَّ أَتَى ثَابِتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُ كَانَتْ لِلزَّبِيرِ عَلَيَّ مِنَّةٌ، وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَجْزِيَهُ بِهَا، فَهَبْ لِيْ دَمَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، : «هُوَ لَكَ».

فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ وَهَبَ لِي دَمَكَ فَهُوَ لَكَ.

فَقَالَ لَهُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدَ، فَمَاذَا يَصْنَعُ بِالحَيَاةِ؟ .

فَأَتَى ثَابِتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ هَبْ لِيَ امْرَأَتَهُ وَوَلَدَهُ.

قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: هُمْ لَكَ.

فَأَتَاهُ ثَابِتُ فَقَالَ: قَـدْ وَهَبَ لِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَهْلَكَ وَوَلَدَكَ فَهُمْ لَكَ.

قَالَ اليَهُودِيُّ: أَهْلُ بَيْتٍ بِالحِجَازِ لاَ مَالَ لَهُمْ فَمَا بَقَاؤُهُمْ عَلَى ذَلِكَ؟.

فَأَتَى ثَابِتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَالَهُ..

قَالَ: هُوَ لَكَ..

فَأَتَاهُ ثَابِتُ فَقَال: قَدْ أَعْطَانِي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مَالَكَ فَهُوَ لَكَ..

قَالَ الزَّبِيرُ: أَيْ ثَابِتُ، مَا فَعَـلَ الَّذِي كَأَنَ وَجْهَهُ مِرْآةٌ يَتَرَاءَى فِيهَا عَذَارَى الحَيِّ: كَعْبُ بنُ أَسَدٍ؟..

قَالَ ثَابِتُ: قَدْ قُتِلَ.

قَالَ: فَمَا فَعَلَ سَيِّدُ الحاضِرِ وَالبَادِي: حُيَيّ بنُ أَخْطَبَ؟.

قَال: قَدْ قُتِلَ.

قَالَ: فَمَا فَعَلَ مُقَدِّمَتُنَا إِذَا شَدَدْنَا، وَحَامِيَتُنَا إِذَا فَرَرْنَـا: «عزَّالُ بـنُ سَمَوْأَلَ؟.

قَالَ ثَابِتُ: قُتِلَ.

قَالَ: فَمَا فَعَلَ المَجْلِسَانِ؟ يَعْنِي بَنِي كَعْبِ بنِ قُرَيْظَةَ وَبَنِي عَمْرِو بنِ قُرَيْظَةَ.

قَالَ: قُتِلُوا.

قَالَ الزَّبِيرُ: فَإِنِّي أَسْأَلُكَ يَا ثَابِتُ بِيَدِي عِنْدَكَ إِلَّا أَلْحَقْتَنِي بِالقَوْمِ، فَوَاللَّهِ مَا فِي العَيْشِ بَعْدَ هَؤُلَاءِ مِنْ خَيْرٍ، فَمَا أَنَا بِصَابِرٍ بَعْدَهُمْ حَتَّى أَلْقَى الأَحِبَّةَ. فَقَدَّمَهُ ثَابِتُ فَضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

فَلَمَّا بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ قَوْلُهُ: «أَلْقَى الأَحِبَّةَ» قَالَ: يَلْقَاهُمْ وَاللَّهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيها مُخَلَّداً[1].

وَفِي غَزْوَةِ بَنِي المُصْطَلِقِ، عَادَ بَعْدَمَا أَثْبَتَ مَا عُرِفَ عَنْهُ مِنْ شَجَاعَةٍ وَإِقْدامٍ، وَمُضِيٍّ فِي الجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، عَادَ وَلَهُ نَصِيبٌ مِنْ سَبَايَا بَنِي المُصْطَلِقِ، وَقَدْ وَقَعَتْ جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الحَارِثِ فِي السَّهْمِ لَهُ، وَهِيَ بِنْتُ سَيِّدِ القَوْمِ، وَمِنَ الجَمِيْلَاتِ الَّتِي تَأْخُذُ النَّفْسَ، فَكَاتَبَتْهُ عَلَى نَفْسِهَا، وَأَتَتْ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِتَسْتَعِينَهُ فِي كِتَابَتِهَا،

---

(١) سيرة ابن هشام. الجزء الثالث.

فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَنَا جُوَيْرِيَّةُ بِنْتُ الحَارِثِ بنِ أَبِي ضِرَارٍ سَيِّدِ قَوْمِهِ، وَقَدْ أَصَابَنِي مِنَ البَلَاءِ مَا لَمْ يَخْفَ عَلَيْكَ، فَوَقَعْتُ فِي السَّهْمِ لِثَابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ، فَكَاتَبْتُهُ عَلَى نَفْسِي، فَجِئْتُكَ أَسْتَعِينُكَ عَلَى كِتَابَتِي..

قَالَ الرَّسُولُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَهَلْ لَكِ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ؟».

قَالَتْ: وَمَا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟.

قَالَ: «أَقْضِي عَنْكِ كِتَابَتَكِ وَأَتَزَوَّجُكِ».

قَالَتْ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: «قَدْ فَعَلْتُ».

وَخَرَجَ الخَبَرُ إِلَى النَّاسِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَدْ تَزَوَّجَ جُوَيْرِيَّةَ بِنْتَ الحَارِثِ، فَقَالَ النَّاسُ: أَصْهَارُ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلُوا مَا بِأَيْدِيهِمْ. فَلَقَدْ أُعْتِقَ بِتَزْوِيجِهِ إِيَّاهَا مِائَةُ أَهْلِ بَيْتٍ مِنْ بَنِي المُصْطَلِقِ، فَمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ أَعْظَمَ بَرَكَةً عَلَى قَوْمِهَا مِنْها[١].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير. الجزء الرابع.

وَقَدِمَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فِي العَامِ التَّاسِعِ وُفُودُ العَرَبِ، وَكَانَ مِمَّنْ قَدِمَ عَلَيْهِ عُطَارِدُ بنُ حَـاجِبِ التَّمِيمِيُّ فِي أَشْـرَافِ بَنِي تَمِيمٍ، مِنْهُمُ الأَقْـرَعُ بنُ حَابِسٍ، والزِّبْرِقَانُ بنُ بَـدْرٍ، وَعَمْرُو بنُ الأَهْتَمِ، وَعُيَيْنَـةُ بنُ حِصْنٍ، وَقَيْسُ بنُ عَاصِمٍ. فَلَمَّا دَخَلَ وَفْدُ بَنِي تَمِيمٍ المَسْجِدَ نَادَوْا رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ وَرَاءِ حُجُرَاتِهِ: أَنِ اخْرُجْ إِلَيْنَا يَا مُحَمَّدُ، فَآذَى ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، مِنْ صِيَاحِهِمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ، جِئْنَاكَ نُفَاخِـرُكَ، فَأْذَنْ لِشَـاعِرِنَـا وَخَطِيبِنَـا؛ قَالَ: قَـدْ أَذِنْتُ لِخَطِيبِكُمْ فَلْيَقُلْ، فَقَامَ عُطَارِدُ بنُ حَاجِبٍ فَقَالَ:

«الْحَمْدُ للَّهِ الَّذِي لَهُ عَلَيْنَا الفَضْـلُ والمَنُّ، وَهُوَ أَهْلُهُ، الَّذِي جَعَلَنَا مُلُوكَـاً، وَوَهَبَ لَنَا أَمْـوَالاً عِظَامَـاً، نَفْعَلُ فِيهَـا المَعْرُوفَ، وَجَعَلَنَا أَعزَّ أَهْلِ المَشْرِقِ وَأَكْثَرَهُ عَـدَداً، وَأَيْسَرَهُ عُدَّةً، فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ؟ أَلَسْنَا بِـرُؤُوسِ النَّاسِ وَأُوْلِـي فَضْلِهِمْ؟ فَمَنْ فَاخَرَنَا فَلْيَعْدُدْ مِثْلَ مَا عَدَدْنَا، وَإِنَّـا لَوْ نَشَـاءُ لأَكْثَرْنَا الكَلاَمَ، وَلَكِنَّا نَحْيَا مِنَ الإِكْثَارِ فِيمَا أَعْطَانَا، وَإِنَّا نُعْرَفُ بِذَلِكَ. أَقُولُ هَذَا لأَنْ تَأْتُوا بِمِثْـلِ قَوْلِنَـا، وَأَمْرٍ أَفْضَـلَ مِنْ أَمْرِنَا». ثُمَّ جَلَسَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِثَابِتِ بنِ قَيْسِ بنِ شَمَّاسٍ: «قُمْ، فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ». فَقَامَ ثَابِتُ، فَقَالَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي السموات وَالأَرْضُ خَلْقُهُ، قَضَى فِيهِنَّ أَمْرَهُ، وَوَسِعَ كُرْسِيُّهُ عِلْمَهُ، وَلَمْ يَكُ شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا مِنْ فَضْلِهِ، ثُمَّ كَانَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَنْ جَعَلَنَا مُلُوكاً. واصْطَفَى مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ رَسُولاً، أَكْرَمَهُ نَسباً، وَأَصْدَقَهُ حَدِيثاً، وَأَفْضَلَهُ حَسَباً. فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ وَائتَمَنَهُ عَلَى خَلْقِهِ، فَكَانَ خِيرَةَ اللَّهِ مِنَ العَالَمِينَ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلى الإِيمَانِ بِهِ، فَآمَنَ بِرَسُولِ اللَّهِ المُهاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَذِي رَحِمِهِ، أَكْرَمُ النَّاسِ حَسَباً، وَأَحْسَنُ النَّاسِ وُجُوهاً، وَخَيْرُ النَّاسِ فِعَالاً. ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ الخَلْقِ إِجَابَةً، وَاسْتَجابَ لِلَّهِ حِينَ دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نَحْنُ، فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَوُزَرَاءُ رَسُولِهِ، نُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مَنَعَ مِنَّا مَالَهُ وَدَمَهُ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي اللَّهِ أَبداً، وَكَانَ قَتْلُهُ عَلَيْنَا يَسِيراً. أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمُؤْمِنَاتِ، وَالسَّلامُ عَلَيْكُمْ».

فَقَامَ الزِّبْرِقَانُ بنُ بَدْرٍ فَقَالَ قَصِيدَةً مَطْلَعُهَا:

نَحْنُ الكِـرَامُ فَـلاَ حَيٌّ يُعَـادِلُنَـا
مِنَّـا المُلُوكُ وفِينَـا تُنْصَبُ البِيَـعُ

وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إِلَى حَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ، وَكَانَ غَائِبًا، فَحضَرَ فَلَمّا انْتَهَى الزِّبْرِقَـانُ بنُ بَدْرٍ مِنْ قَصِيدَتِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِحَسَّانَ بنِ ثَابِتٍ: قُمْ يَا حَسَّانُ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِيمَا قَالَ. فَقَامَ حَسَّانُ فَقَالَ قَصِيدَةً مَطْلَعُهَا:

إِنَّ الـذَّوَائِبَ مِنْ فِهْـرٍ وَإِخْـوَتِهِمْ
قَـدْ بَيَّنُـوا سُنَّـةً لِلنَّـاسِ تُـتَّبَـعُ

فَلَمَّا فَرَغَ حَسَّانُ مِنْ قَصِيدَتِهِ، قَالَ الأَقْرَعُ بنُ حَابِسٍ: وَأَبِي، إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَمُؤَتَّى لَهُ، لَخَطِيبُهُ أَخْطَبُ مِنْ خَطِيبِنَا، وَلَشَاعِرُهُ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا، وَلأَصْوَاتُهُمْ أَحْلَى مِنْ أَصْوَاتِنَـا. فَلَمَّا فَرَغَ القَوْمُ أَسْلَمُوا، وَجَوَّزَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَحْسَنَ جَوَائِزَهُمْ(١).

وَفِي هَؤُلَاءِ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَـادُونَكَ مِنْ

(١) سيرة ابن هشام.

وَرَاءِ الحُجُـرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ. وَلَـوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

وَلَمَّـا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُـولِـهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُـلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ﴾[٢]. اشْتَـدَّتْ عَلَى ثَابِتٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ، وَطَفِقَ يَبْكِي، فَأُخْبِرَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ بِمَـا كَبُرَ عَلَيْهِ مِنْهَا، وَقَالَ: أَنَا رَجُلٌ أُحِبُّ الجَمَالَ، وَأَنْ أَسُودَ قَوْمِي، فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «لَسْتَ مِنْهُمْ، بَلْ تَعِيشُ بِخَيْرٍ، وَتَمُوتُ بِخَيْرٍ، وَيُدْخِلُكَ اللَّهُ الجَنَّةَ».

وَلَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَـوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَـرُوا لَهُ بِـالْقَوْلِ كَجَهْـرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَـالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُـرُونَ﴾[٣]. وَكَـانَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسِ بنِ الشَّمَّاسِ رَفِيعَ الصَّوْتِ. فَقَالَ: أَنَا الَّذِي كُنْتُ أَرْفَعُ صَوْتِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَا مِنْ أَهْلِ النَّـارِ. حَبِطَ عَمَلِي. وَجَلَسَ فِي أَهْلِهِ حَزِينـاً.

---

(١) سورة الحجرات: الآيتان ٤، ٥.
(٢) سورة لقمان: الآية ١٨.
(٣) سورة الحجرات: الآية ٢.

فَفَقَـدَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فَـانْـطَلَقَ بَعْضُ القَـوْمِ إِلَيْهِ، فَقَـالُوا: تَفَقَّـدَكَ رَسُـولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، مَا لَكَ؟ قَـالَ: أَنَا الَّـذِي أَرْفَعُ صَـوْتِي فَوْقَ صَـوْتِ النَّبِيِّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَأَجْهَرُ لَـهُ بِـالقَـوْلِ. حَبِطَ عَمَلِي. أَنَـا مِنْ أَهْلِ النَّـارِ. فَأَتَـوْا النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرُوهُ بِمَا قَالَ، فَقَالَ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا، بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ». قَالَ أَنَسُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَكُنَّا نَرَاهُ يَمْشِي بَيْنَ أَظْهُرِنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ.

وَرُوِيَ أَنَّ ثَابِتَ بنَ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّـا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَعَدَ فِي الطَّرِيقِ يَبْكِي فَمَرَّ بِهِ عَاصِمُ بْنُ عَدِيٍّ مِنْ بَنِي العَجْلَانِ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟ قَالَ: هَذِهِ الآيَـةُ أَتَخَوَّفُ أَنْ تَكُونَ نَـزَلَتْ فِيَّ، وَأَنَا صَيِّتٌ، رَفِيـعُ الصَّوْتِ. فَمَضَى عَاصِمُ بنُ عَدِيٍّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَغَلَبَ ثَابِتاً البُكَاءُ فَـأَتَى إِلَى امْرَأَتِـهِ جَمِيلَةَ ابْنَةِ عَبْدِاللَّهِ بنِ أُبَيٍّ بنِ سَلُولٍ، فَقَالَ لَهَا: إِذَا دَخَلْتُ بَيْتَ فَرْشِي فَشُدِّي عَلَى الضَّبَّةِ بِمِسْمَارٍ. فَضَرَبَتْهُ بِمِسْمَـارٍ، وَقَـالَ: لَا أَخْرُجُ حَتَّى يَتَـوَفَّانِي اللَّهُ تَعَـالَى أَوْ يَـرْضَى عَنِّي رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَتَى عَاصِمُ بنُ عَدِيٍّ،

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ خَبَرَهُ. فَقَالَ: اذْهَبْ فَادْعُهُ لِيَ. فَجَاءَ عَاصِمُ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى المَكَانِ فَلَمْ يَجِدْهُ، فَجَاءَ إِلَى أَهْلِهِ فَوَجَدَهُ فِي بَيْتِ الْفَرْشِ، فَقَالَ لَهُ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَدْعُوكَ. فَقَالَ: اكْسِرِ الضَّبَّةَ. فَخَرَجَا فَأَتَيَا النَّبِيَّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا يُبْكِيكَ يَا ثَابِتُ؟». فَقَالَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَا صَيِّتٌ وَأَتَخَوَّفُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الآيَةُ نَزَلَتْ فِيَّ ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[1].

فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ حَمِيداً، وَتُقْتَلَ شَهِيداً، وَتَدْخُلَ الجَنَّةَ؟» فَقَالَ: رَضِيتُ بِبُشْرَى اللَّهِ تَعَالَى وَرَسُولِهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا أَرْفَعُ صَوْتِي أَبَداً عَلَى صَوْتِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٢.

رَسُـولِ اللَّهِ أُولَئِـكَ الَّـذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْـوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[1].

وَنَنْظُرُ إِلَى إِيْمَانِ هَذَا الصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ وَكَيْفَ ارْتَعَشَ قَلْبُهُ، وَارْتَجَفَ فُؤَادُهُ، وَكُلُّ جَوَارِحِهِ مِنْ سَمَاعِ تِلْكَ الآيَـةِ الكَرِيمَةِ، وَخَافَ خَوْفاً شَدِيداً، وَأَصَابَهُ الرُّعْبُ مِنْ أَنْ تَكُونَ قَدْ نَزَلَتْ بِحَقِّهِ فَيَكُونُ عَمَلُهُ قَدْ حَبِطَ وَذَهَبَ كُلُّ مَا قَدَّمَ هَبَاءً مَنْثُوراً.

وَتُـوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَلَّمَ، وَهُـوَ عَنْـهُ رَاضٍ. وَارْتَـدَّتِ العَـرَبُ بَعْـدَ ذَلِـكَ، وَاسْتَنْفَـرَ خَلِيفَـةُ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَبُـو بَكْـرٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، المُسْلِمِينَ لِقِتَالِ المُـرْتَدِّينَ، وَكَـانَ ثَـابِتُ بْنُ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ، فِي أَوَّلِ الَّـذِينَ خَـرَجُـوا، وَحَمَـلَ رَايَـةَ الأَنْصَارِ، وَانْطَلَقَ مَعَ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِلَى اليَمَامَةِ. وَانْكَشَفَ المُسْلِمُونَ فِي أَوَّلِ لِقَاءٍ مَعَ المُرْتَـدِّينَ، فَقَالَ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ وَسَالِمُ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ: مَا هَكَذَا كُنَّا نُقَـاتِـلُ مَـعَ رَسُـولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْــهِ وَسَلَّمَ، فَجَعَـلاَ

(١) سورة الحجرات: الآية ٣.

لِأَنْفُسِهِمَا حُفْرَةً فَدَخَلَا فِيهَا فَقَاتَلَا حَتَّى قُتِلَا، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهما. وَسَالِمٌ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ كَانَتْ بِيَدِهِ رَايَةُ الْمُهَاجِرِينَ بَعْدَ اسْتِشْهَادِ زَيْدِ بنِ الخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَرُوِيَ أَنَّ ثَابِتَ بنَ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لَمَّا رَأَى مَا رَأَى مِنَ انْكِشَافِ الْمُسْلِمِينَ خَرَجَ وَقَدْ تَحَنَّطَ وَنَشَرَ أَكْفَانَهُ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلَاءِ، وَأَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ. وَتَقَدَّمَ الصُّفُوفَ وَقَاتَلَ حَتَّى اسْتُشْهِدَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَرَأَى رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَابِتَ بنَ قَيْسٍ فِي مَنَامِهِ فَقَالَ لَهُ: إِنِّي لَمَّا قُتِلْتُ بِالأَمْسِ مَرَّ بِي رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَانْتَزَعَ مِنِّي دِرْعاً نَفِيسَةً، وَمَنْزِلُهُ فِي أَقْصَى العَسْكَرِ، وَعِنْدَ مَنْزِلِهِ فَرَسٌ يُسْتَنُّ[1] فِي طُولِهِ، وَقَدْ أَكْفَأَ عَلَى الدِّرْعِ بُرْمَةً، وَجَعَلَ فَوْقَ البُرْمَةِ رَحْلاً، فَائتِ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ فَلْيَبْعَثْ إِلى دِرْعِي فَلْيَأْخُذْهَا، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى خَلِيفَةِ رَسُولِ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْلِمْهُ أَنَّ عَلَيَّ مِنَ الدَّيْنِ كَذَا، وَلِيَ مِنَ المَالِ كَذَا، وَفُلانٌ مِنْ رَقِيقِي عَتِيقٌ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَقُولَ: هَذَا حُلْمٌ

---

(١) يستن: يرفع يديه ويطرحهما معاً ويضغط برجليه.

فَتُضَيِّعَهُ. فَأَتَى الرَّجُلُ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ، فَوَجَّهَ إِلَى الدِّرْعِ أَحَدَ الجُنْدِ فَوَجَدَهَا كَمَا ذَكَرَ. وَقَدِمَ الرَّجُلُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةِ المُسْلِمِينَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَأَخْبَرَهُ. فَأَنْفَذَ أَبُو بَكْرٍ وَصِيَّتَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ.

وَاسْتَشْهَدَ يَوْمَ اليَمَامَةِ عَامَ أَحَدَ عَشَرَ لِلْهِجْرَةِ وَلَا تُذْكَرُ تِلْكَ المَعْرَكَةُ إِلَّا وَيُذْكَرُ ثَابِتُ بنُ قَيْسٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لِمَا أَبْلَى فِيهَا.